الكمين ...

قصة بقلم نايف شرف الدين

هو ذا مكان الكمين . وليكن كمينا يكتبه التاريخ بدم . وتسلق الشاب شجرة كبيرة بخفة قط . الا ما اروع الانتقام ! حقد قديم ويتلاشى، كما يتلاشى دخان .

دقائق معدودات ويجيئك الموت يا لمياء ، ينقض عليك كالقضاء والقدر. وامتدت يده تقبض على مسدس مربوط الى خاصرته اليسرى . عيناه احمرتا ، وبرزتا قليلا من محجريهما .

آه .. ما أروع الانتقام ! ضغط على الزناد ، وتنطلق رصاصة الى صدرهـــا .

هز راسه متوعدا ، يحسبونك تفاهة من تفاهات الوجود . لكن مهلا: الاعمال تغير الاقوال ..

ما كان اغباك يوم وقعت في الفخ ! كنت فريسة سهلة لمخالبها . بعد ان مكرت بك مكر ثعلب .. دوى صراخها كالرعد في اذنيك . صعقتك المفاجأة . فوقفت شاردا كأبله ، مسمرا كمسمار .. واحاطت بـــك وحوش آدمية ، ضاربة حولك خياما من رعب .

زوجها وقف يهددك بمسدس ، والخدم انقضـــوا عليك بالسياط ، وجاءتك غيبوبة الموت ، فترنحت وسقطت .. كقتيل صرعته رصاصـــة حاقـــدة ..

لم تعرف كم مضى عليك ، من وقت ، وانت طريح الغيبوبة ، تحت اقدامهم ؟! وبدلو من ماء بارد ، اعادوا اليك رشدك .. فتحت عينيك .. فهالك ان ترى ، حولك ، سياجا من بشر .. نظراتهم فيها ويل وتهديد.

احسست بالرعب ينفذ الى عظامك ، فادرت نظراتك فيهم ، مسترحما ولكن ثقبت اذنيك اصوات كالسهام : وحش . مجرم . ابن زانية . هاتك اعراض . الويل لك . الويل ..

ماذا جرى يا قوم ؟

ساءلت نفسك بلا شعور ، فما كانت الذاكرة لتعود اليك بسهولة ، لتعرف ماذا حدث . كنت تشبه ارنبة عالقة بفخ . لا تدري متى سقطت وأيـــن ؟!

وفجأة لمحتها .. هي لمياء ، واقفة عند نافذة ، تنظر اليك من الطابق العلوي . فارتعشت .. وانتفضت .

اهتز كيانك كله . واحسست ان تيارا جارفا ، من الوعي ، يسري في ذاتـــك ..

وفي الحال ازدحم الماضي كله، دفعة واحدة، على مسارب ذاكرتك. فتفاقم ضغط الذكريات على رأسك حتى كاد ينفجر .. وابتلعك جحيم الواقع فخلت نفسك وسط أتون مخيف ، فصرخت بصمت : سأقتلـــك ايتها الماكرة .. الويل .. الويل لك !

وحاولت ان تهددها بقبضتيك .. لكنك الفيتهما مقيدتين وراء ظهرك .. جربت ان تتصلب واقفا ، فاذا بقدميك مشدودتان الى بعضهما بحبل.

كنت اشبه بثور على وشك ان يذبح .. وادرت رأسك فيما حولك، فاذا بنظراتك تصطدم بمعالف البقر وكومات روثها .. فأيقنت ان الخدم حملوك ـ اثناء غيبوبتك ـ من غرفة نوم لمياء ، ورموا بك في ساحـــة زريبة المواشي .

وتسربت الى منخريك ، في الحال ، رائحة روث وبول . وشكت اليك اعضاء جسمك ألما مبرحا .. كانوا قد اشبعوك ضربا وركلا ، حتى سالت منك دماء غزيرة . وشعرت بقوة مخدرة تسوقك نحو الاسترخاء ، بينما أصوات رجال ونساء ، من حولك ، تعلو صاخبة كهدير امواج : دعونـا نجهز عليه . لا . ان رجال الشرطة قادمون بعد دقائق .. وحق الجحيم ان هذا الآثم .. خرج من رحم زانية . اتركوه لي .. لالقنه درسا في الاخلاق .. لا .. لا يصح ان تلوث يديك الطاهرتين ، بهذا القذر يا حاج محمود .. كيف تجرأ ابن الرذيلة .. واقتحم مضجع زوجة المختار صاحبة الصون والعفاف ؟ نجنا يا رب من عهر العاهرين .. هذا هـــو اخر الزمن يا اختي .. يا سماء ابقي على عبيدك !

انتفخ رأسك كطبل . وتناقلت جمجمتك صدى اصواتهم كرعود شتاء .. الناس كلهم حملوا عليك ، وكأنك وباء الطاعون .. آه .. ليتهـــم عرفوا قصتك مع لمياء .. اذن لكانوا عاملوك بشيء من رحمة .

ربما كانوا يعلمون بأمرك ، كما تعلم انت عنه واكثر .. ولكن احـــدا منهم ، لم يتجرأ ان يقف في صفك .. كلهم يرهبون سطوة المختار .. كلهم يريدون مرضاته .. كلهم مدينون له بمال ..

هممت ان تصرخ في جمعهم : سوف اقص عليكم قصتي يا قوم ..والله انا ما كنت الا كآلة ، مجرد آلة ، مقودها في يد لمياء .. وكنت مجبـرا ان اسير حسب مشيئتها .

لقد ارغمتني على التعلق بها .. دفعتني دفعا نحو عشقها . اسمعوا انا لست سوى يتيم ، نفى الموت والدي وامي ، الى العدم ، مبكرا . وقد دفعتني حراب الجوع الى قبول عمل عند المختار .

انتم لا تعلمون ما صنعته بي سنوات التشرد الست ، قبل ان احل في خدمة سيد قريتكم . هل اكلمكم عنها ؟ لكن .. ما جدوى كلام عن حياة تافهة ، امضيتها زاحفا في سراديب الفقر ؟ انا اعلم .. انتم ليس يهمكم سوى الواقع . انكم تدينونني .. واقعي يعكس لكم صورة فجور بشعة .. كلكم يريد لي الاذى . اني أقرأ ذلك في عيونكم الحمر .

آه .. كم تبدو ملامحكم قاسية .. انكم تخيفونني ، ولساني لن تحل عقدته لاتكلم . انكم تسلبونني حريتي كاملة .. انكم تضيعون علي فرصة نـــادرة ..

انا اريد ان اتكلم .. أريد أن اوضح لكم الامر .. أريد أن اقـــول الحقيقة يا قوم . الحقيقة كاملة .. لا حبا في استدرار عطفكم وشفقتكم علي ، انما من اجل الحقيقة بحد ذاتها .

ها هي سيارة الشرطة قد اقبلت . فات الاوان .. لن تتاح لـــك فرصة الكلام مع هؤلاء الناس يا نعيم .. هكذا دائما تهرب منك الحيـاة كلها .. كنت دائما تهرب من طريق امتحانات الحياة .. لكن ما أفادك هروبك شيئا .. وها انت الان امام امتحان رهيب .

سوف تسقط يا نعيم . هذا امتحان لا ينجح به امثالك . تـود ان تعرف لماذا ؟ سوف تعرف عندما يقدمونك للمحاكمـــة .. القاضي . . والمدعي العام .. والشهود . ومحامي زوجة المختار .. كل هـــؤلاء سيقفون في وجهك كسد .

بدأت اعصابك تنهار يا نعيم . معك حق ، لانك وحدك ستقف ضـد الجميع .. سوف تدافع عن نفسك ما استطعت .. لكنك ستفشل يا نعيم .. سوف ترى .. وستدخل السجن . والمدة ستكون طويلة يـــا نعيـم .. قلبك يحدثك بذلك ، وكلام القلوب لا يخطيء .. او لا تزال تفكر بقول الحقيقة لهم ؟ أو ستقول انك كنت عشيق لمياء طوال ثلاث سنوات ؟ او ستقول هذا لهيئة المحكمة ؟

هذا جنون يا نعيم .. من يصدق كلامك هذا ؟ سيان عندك صدقوا او لم يصدقوا . الحقيقة ستقولها . مصيرك السجن على كل حال..

ولهذا السبب ستقول الحقيقة . سوف تقف بكل هدوء وتتكلم .. هل قلت بكل هدوء ؟ ستحاول ان تكون هادئا على الاقل . لكن .. لا اظنك تنجح في محاولتك .. المهم انك ستتكلم هكذا : نعم .. انا دخلت مضجع لمياء ، بناء لرغبتها يا سيدي القاضي .. دخلت من النافذة . نعم .. منذ ثلاث سنوات وأنا ادخل واخرج من النافذة .

انها عملية سهلة للغاية . أتسلق سور القصر اولا ، ثم اقفز الى شجرة رمان تمتد فروعها حتى النافذة . ان لمياء عشيقتي يا سيدي القاضي . أو بالاحرى كنت عشيقها . أو رأيت يا سيدي القاضي ؟ليس هناك اية محاولة اغتصاب من جانبي . كل شيء كان يجري برضاها.

انها تعشقني بجنون وما كنت استطيع مخالفتها بشيء . كانت ،دائما تهددني بالطرد ، من عملي ، اذا ما تخلفت عن موعدها . نعم .. كانت مواعيدها كثيرة ، بعدد الليالي التي كان يتغيبها المختار عن البيت .. وما أكثر ما كان يتغيب المختار .

وهكذا كنت ملزما ان اوافيها الى مضجعها ، كلما رغبت في ذلك .

ماذا يمكنني ان افعل غير هذا ؟ هل ارفض تلبيه رغباتها ؟ هل افطع علاقتي بها ؟

هذا مستحيل . هذا عين الجنون . هذا يعني عودتي الى ايام التشرد والبؤس .. لا .. لا لن ارضى بذلك ابدا .. انت لم ترني ، يا سيدي القاضي ، قبل ان يلحقني المختار بخدمته . كنت جلدا وعظاما ،جوعان دائما ، بردان دائما .. وفجاة وجدت الاكل ، واللبس والدفء .

كيف أصف لك شعوري يومئذ ؟

انه شعور غريب . شعور يشبه حالة انعدام الوزن . شعوربالتحليق في الهواء . كنت اشعر بأني اطير يا سيدي القاضي .

ومن عامل بسيط ، يعني بشئون نظافة زريبة المواشي ، رفعتني لمياء الى مراقب العمال اجمع .. ترقية ما كنت لاحلم بها .

ايام طويلة رافقتني زوجة المختار .. كانت عيناها تتكلمان بلغةعجيبة لعلها لغة رموز . وبطبيعة الحال كنت جاهلا هذه اللغة .. لكني كنت اشعر بانها تريد مني شيئا ، وهذا ما دفعني الى أن اتوارى عن انظارها كلما لمحتها . كنت خجولا جدا .. واخاف جدا.. وبخاصة عندما تكلمني امرأة .

وذات ليلة فاجأتني زوجة المختار ، بقدومها ، وانا مستلق على سريري في غرفتي ..

ذكرتني بكل ما صنعته من اجلي .. ذكرتني بمعاملتها الخاصة لي وبنوصيائها الطيبة للمختار اكراما لخاطري . وذكرتني ايضا بما قدمته لي من ملابس ومسكن جميل . ولفتت نظري الى الترقية السريعة التي جاءتني . وأنا ما زلت حديث عهد في عملي .. ووعدتني بأيام حلوة قادمة . وبعد هذا كله ، سألتني ما اذا كنت فهمت قصدها ؟ فأجبتها بالنفي . فأخذت تضحك ..

هل تعرف، يا سيدي القاضي، ماذا قالت لي؟ قالت اني ما زلت مهرا غريرا .. بالرغم منبلوغي السابعة عشرة . ولكنها ستجعل مني حصانا رائعا .

ورمت بنفسها فوقي .. قاومتها ، في البداية ، كعذراء . ولكني وجدت نفسي استجيب لها بعد وقت ..

وللمرة الاولى وجدتني أمارس عملية الحب ....

هكذا بدأت علاقتنا . واستمرت ، تنمو وتنمو . ورأيتني بعد حين اصبح جزءا من حياتها .. حيث تغلغل حبها في دمي ..

أما آخر لقاء لي معها ، فقد كان ليلة القي القبض علي ..

كنت في فراشها قبل الحادث بدقائق . لقد امضينا الليل كله وقبلتها قبلة الوداع قبل الفجر بقليل .. وقمت فارتديت ملابسي . وعندما هممت بالتوجه نحو النافذة ، سمعت صوت حركة في غرفة الاستقبال المجاورة .

تنبهت لمياء لذلك . وحثتني على الاسراع بمغادرة غرفتها .

كانت مضطربة جدا . طار صوابي .. ولم اعد ارى شيئا امامي، بالرغم من وجود ضوء احمر خفيف في الغرفة .

مشيت الى جهة معاكسة للنافذة . فاعترضني مقعد الزينة .فسقطت على وجهي ، واحدث ذلك جلبة قوية ، تردد صداها في ارجاء المنزل .

واضاءت لمياء الضوء على اثرها ، وهي في سريرها . وصم اذني صراخها : يا منصور .. يا سميحة .. يا راشد .. الحقوا بي ..المجرم .. خلصوني منه .. يريد ان يغتصبني .

كالبرق دخل المختار شاهرا مسدسه . كان قد عاد الىالبيت فجاة من رحلته ..وتبعه الخدم بعد قليل وهم يلوحون بالعصي والسياط .. بينما وقفت انا مأخوذا بما يجري .

وحل بي ما حل ...

وما شعرت الا ورجال الشرطة يحملونك ، كخروف ، ويقذفون بك وسط شاحنة كبيرة . والناس من حولك بين ضاحك ، وساخر ، ولاعن .

وفي المحكمة لم نستطع ان تقول الحقيقة . خاننك الجراة .. وتقاذفتك التردد كالكرة .

وكل ما فعلته انك طلبت الرحمة .

***

خمس سنوات كان حكم القاضي عليك .. خمس سنوات امضيتها ، في السجن ، بين المجرمين والقتلة واللصوص .. وقد تعلمت منهم الكثير مما كنت تجهل .

تعلمت الحقد ، والتربص ، والتبصر .. تعلمت كيف تصبح مجرما حقيقيا لا يهاب الحبس .. تعلمت كيف تشفي غليلك . غليل خمس سنوات . وراء القضبان . آه .. يا لروعة الانتقام . خمس سنوات عشتها وانت تحلم بالانتقام . ومن اجل هذه الغايه كنت تقوم بخدمة السجناء ، حتى جمعت ثمن هذا المسدس الرهيب .

اقتحم بنظراته الحادة طريقا معشوشبة ، تمتد ملتوية ، كأفعى،امامه

مؤلفات سيمون دو بوفوار

ق. ل

- المثقفون ـ رواية جزآن — ترجمة جورج طرابيشي — ١٤٠٠
- انا وسارتر والحياة — ترجمة عايدة مطرجي ادريس — ٤٠٠
- مغامرة الانسان — ترجمة جورج طرابيشي — ١٥٠
- الوجودية وحكمة الشعوب — ترجمة جورج طرابيشي — ١٧٥
- نحو اخلاق وجودية — ترجمة جورج طرابيشي — ٢٢٥
- بريجيت باردو وآفة لوليتا — ١٥٠
- قوة الاشياء ـ جزآن — ترجمة عايدة مطرجي ادريس — ١١٠٠

منشورات دار الاداب

طريق قديمة يعرفها جيدا . واحتقن وجهه بدماء ذكرى وغضب معا .
« احبك حبي لكل ربيع جديد يا نعيم » كلام مر عليه اعوام طويلة ، همست له به في احد اعياد ميلادها .

هي دائما تحتفل بعيد ميلادها في الحقول المزهرة . تحت سماء ربيعية . ثلاثين شمعة اطفأتها منذ ست سنوات امام ناظريك .. هنا في هذا الحقل المزهر الذي امامك . واليوم ستأتي كعادتها في كل عام لتحتفل بعيد ميلادها ، ولتطفيء الشموع الست والثلاثين . موكب بشري كبير سيحيط بعربتها .. عربة يجرها حصانان ابيضان مطوقان بأكاليل من الزهور . والمختار يجلس الى جانبها كطاووس ، بينما مراقب العمال يمسك بلجام شاعرية ، كما كنت تفعل انت من قبله .. وغناء .. وموسيقى .. وزجاجات خمر .. وكعكة بحجم برج .

وتنبه لصدى ضجيج قادم من بعيد . وارتفعت يده بتردد تشير نحو الطريق : ها هو الموكب قد اطل يا نعيم . .

خفقان قلبه يزداد . عرق جسمه يرشح كجرة . صوت الانتقام يدوي في نفسه كانفجار قنبلة .. سوف ترون يا بعوض الارض . وبحركة عصبية استلت يده المسدس .. وشحن فوهته برصاصة ، ستصوب الى قلبها .. الى مصدر الحياة والحب والكراهية . ست وثلاثون شمعة سيطفئها رصاص مسدسك بغمضة عين .

ولدت في الربيع ، يا لمياء ، وستموتين في الربيع . اقترب .. اقترب يا موكب الموت .. يا للجحيم ما ابطأ سيرك .. لكأنك تسير فوق ارض مزروعة بالغام .

دنت ساعة اللقاء يا نعيم .. الساعة التي تنتظرها منذ خمس سنوات .. دنت ساعة الويل .. سوف تقتل انسانا يا نعيم .

للمرة الاولى ستتذوق نكهة القتل . سوف تسدد بكل دقة .. الويل لك ان اخطأتها .

لا يمكنك ان تخطئها يا نعيم . شهر كامل وانت تتمرن على الرماية .. الابرة ما كانت لتنجو من رصاص مسدسك . ها هم يقتربون .. وها هي غربة لمياء في الطليعة .

واخذ قلبه يخفق بشدة ، حتى كاد ان يقفز من صدره .

هذه اروع لحظة من لحظات عمرك .. واتخذ اصبعه مكانه فوق زناد المسدس . خمسون مترا بينك وبينها لا تزال .. وصوب . ابدا كما تخيلتها يا نعيم .. في نفس المقعد الى جانب زوجها تجلس .

املأ ناظريك منها يا نعيم .. ودعها الوداع الاخير . انها تقترب . لقد اقتربت جدا .. ها هي امامك بكل وضوح .

وكادت عيناه ان تخرجا من محجريهما . يا الهي .. ما اجملها .

وسرى تيار عاطفي جامح في فؤاده .. ما رأتها عيناك يوما بهذا الجمال قط . وأخذ نفسا عميقا . آه .. من يصدق انك كنت فتى احلامها يوما ؟ وتنهد طويلا .. من يصدق انك عاشرتها طوال ثلاث سنوات كما يعاشرها المختار ؟

وانداخ عبر خياله مشهد غرامي بمثل لمح البصر .. انت لا يمكن ان تنساها .. حبها يعيش في اعماق فؤادك لا يزال .. تحبها بقدر ما تكرهها .. تريدها ان تموت ، وتريدها ان تعيش . تريد لها الموت والحياة في آن واحد .. انت انعس اهل الارض يا نعيم .

ها هي امامك . وقلبها اصبح في مدار فوهة مسدسك .. اطلق .. وانتابته رجفة من اخمص قدميه الى قمة رأسه .. هذه هي فرصة العمر يا نعيم .. اطلق ..

وأحس بارتخاء في جسمه ، وبتقلص في عضلات يديه ورجليه .. لن تتكرر الفرصة ابدا يا نعيم .. اطلق . ودار به رأسه .. وانسدل ستار من غشاوة امام ناظريه . اطلق .. اطلق .. اطلق يا تعس .

وسالت دموع القهر من عينيه . واطرق برأسه .

ورأى بعد مرور وقت ان لم يعد ثمة ما يدعوه للبقاء. فغادر الكمين.

الكويت — نايف شرف الدين

صدر حديثا :

تجديد رسالة الغفران

لابي العلاء المعري

بقلم خليل هنداوي

« رسالة الغفران » للفيلسوف العبقري ابي العلاء المعري يجددها مضمونا وشكلا الاديب العربي المعروف الاستاذ خليل هنداوي ، فيقربها الى الاذهان ويبسط آفاقها ويبرز اروع صورها حيث ترى سخرية المعري اللاذعة وانسانيته الرائعة

٢٥٠ ق.ل

منشورات دار الاداب